الأسماك الجائعة

كانت السفينة التى أعمل فيها تقطع رحلتها بين الاسكندرية وتريستا ، وكان عليها أن ترسو فى ميناء بيريه لتفرغ شحنتها وتشحن من جديد . ولم تكن تقل وكابا اللهم إلا بعض البحارة الغرباء الذين يتخلفون فى الثغور لأسباب ملحة . وقد انضم إلينا أحد هؤلاء البحارة وكان قد أودع مستشفى المدينة أثر حادث أصابه فى مشرب من مشارب بيريه .

كان الرجل جم المرح كثير الدعابة يرسلها من فيه حتى فى أحرج المواقف وآلمها ، شأن البحارة . . .

أبحرت السفينة من بيريه ومضت تذرع البحر فى جو معتدل وسماء صافية . وفى تلك الليلة التى ما برحت أذكرها وأرى صورها ماثلة أمامى — تلك الليلة التى سبقت وصولنا إلى تريستا وقد جلسنا نحتفى برفيقنا البحار حول مائدة صفت عليها أوانى الشراب وزجاجات النبيذ وما لذ وطاب من طعام شهى ، وقد لعبت الخمر برءوسنا وراح كل منا يتحدث بما عنّ له من ذكريات البطولة والتفاخر مع مبالغة أحيانا . وفجأة وقف زميلنا البحار يتطاول بقامته القصيرة ووجهه الذى لم يزل شاحباً وعينيه الضاحكتين الماكرتين وأشار بأصبعه صوب الشاطئ الصخرى وكان القمر فى صراع دائم مع السحب الكثيفة التى كانت تحجب عنا صفحة السماء . . .

قال صاحبنا فى هدوء مصطنع : « انظروا يا رفاق إلى تلك الصخور القائمة . فوالله إنى لأرى عليها الدماء البشرية وأسمع سقوط أجسام الضحايا الموثقة وهى تقذف من عل فتتلقفها الأمواج ويسرع إليها «أبو مورينة» ذلك السمك الذى كان الناس يعتقدون أنه لا يكبر ولا يجود لحمه ويطيب إلا إذا أطعم وأشبع من لحوم الجوارى الحسان . وإنى لأرى كذلك صفحة البحر وقد امتزجت بالدماء

وبين آن وآن تنفرج أمواجها عن أشلاء متناثرة . ومن عجب أنها لم تزل تدب فيها الحياة فيسبح كل شلو منها إلى شلو فتتكامل منها أجسام حية وتنتصب فوق الماء فى قامات فارعة يتدلى شعرها الفاحم فوق ظهور فاتنة ، وترسل عيونها نظرات ساحرة تفيض حبًّا ورحمة . وها هى ذى ماثلة أمامى وقد انتظمت حلقات حلقات ترقص رقصة الموت وتنشد أناشيد الأسى والشجن . وتحت أقدامها سمك المورينة الجائع يتطلع إلى هذه الأجسام البضة الناعمة الفتية ولا يستطيع لها طلباً ، فما هى إلا خيالات ضالة فى هذا الخضم الفسيح تهيم حيناً ثم تثب فوق الصخر وتنبطح عليه وقد انتفش شعرها . وماتت الابتسامة على تلك الشفاه الغضة التى كانت يوما ما تبسم فى مرح الشباب ورونق الحياة . وها هم أولاء عمالقة الجلادين غلاظ الأكباد قد شرعوا يشدون وثاق هذه الجثث الحية ثم يقذفون بها واحدة إثر أخرى فى فترات متباعدة إلى تلك الأسماك الجائعة القرمة إلى لحوم البشر . . . »

وعاد صاحبنا إلى مقعده ورجع إلى شرابه يعبه عبًّا ، ومضى يقلب ناظريه فى وجوهنا المتلهفة إلى سماع حديثه وقد لاحت على أساريره علائم الخبث . ولعله كان يطربه ما يحسه من شوقنا وتلهفنا إلى استرساله فى هذا الحديث الممتع . غير أن صمته لم يطل فقد رفع رأسه وقال : «ما أظنكم رأيتم ما رأيت ، على أن مخيلتى لم تختلق هذه الصور ولم تنسجها من خيال كاذب ، ولكنها وليدة قصة وقعت حوادثها فى عصور خلت أيام كان للوثنية شأن ودولة وعز وصولة ، وكانت المسيحية فى فجرها الأول ما تزال طفلة تتعثر أمام تلك الغول الوثنية التى كثيراً ما عدت عليها وأذاقتها مر العذاب ونكلت بها وتنمرت لها .

كان «أنطونيو» من أشراف مدينة «فينيسيا» وسراتها ، وكان وسيم الطلعة واسع العينين مديد القامة ، ولم يكن كغيره من الأشراف متكبراً بل كان على العكس وديعاً رحيما بالناس . وقد حببه هذا إلى مواطنيه ، وكان واسع النفوذ كريم الخلق ، فنعم بحب الجميع وحظى بعطف قيصر .

تعلق «أنطونيو» بالفتاة « هريانا » إحدى بنات الشعب وكانت الفتاة غاية فى الجمال كأنها تحفة نادرة أو تمثال حى من آيات الفن صاغتها آلهة الرومان على ما تشتهى وتشاء . أما عيناها فكانتا جوهرتين فاتنتين انتزعتا لونهما من زرقة البحر ، وكانتا عميقتين لا يسبر غورهما ، ساحرتين ، فى نظراتهما فتنة وإغراء أو قل

كانتا توسلان سهاما تشيع فى النفوس الخوف وأشعة رقيقة تبعث فيها الرجاء
تمت الخطبة بين الفتى والفتاة وراحا ينعمان بالحب ويرشفان من منهله العذب . لم يتركا جنة إلا أظلتهما أغصانها وأحاطت بهما فيها الورود والرياحين وصدحت لهما الأطيار بأناشيد الغزل والنسيب . وكان الفتى يسر فى أذن حبيبته كلاماً حلواً فيه رقة وعذوبة . وكثيراً ما حدثها عن جمال الحب الذى يظل كلّ حى فى الرياض ، ويقول إنى لأراه فى عش الطير حانياً على صغاره ، وأراه فى ثنايا الأزهار تنقله الحشرات من كم إلى كم . وقد يسعدنى كما يسعدك أن نرى لنا طفلا يكون موضع حبنا وزهرة آمالنا . وإنى لتواق إلى أن نعجل فنبنى هنا هذا العش الجميل . وكان أن بنى لها ذلك العش ووُهب لها فيه غلام . ولكنها أغمضت عنيها وأشاحت بوجهها عن الطفل عندما دفعته إليها إحدى القابلات . ودهش الحاضرون كما دهش الزوج عندما رأوا جفوة الأم وإصرارها على أن يفصل بينها بين ابنها مدة اعتكافها . وما كادت تتماثل حتى فرت وهجرت العش وخلفت فيه الزوج البائس والطفل الضعيف ، وتركت للزوج رسالة تبين له أسفها الشديد على ما فعلت ولكنها لم يكن فى طوقها أن تفعل غيره ، وأنها لم تركن إلى الفرار إلا حرصاً على حياة ولدها ولتنقذه من موت محقق ؛ فقد كانت أمنية الزوج أن تنجب له هذا الطفل العزيز لينعم بحبه فأرادت أن تحفظه له وليكون أثمن تذكار لها عنده . وفسرت ذلك بأنها خشيت على طفلها من نظرات عينيها ؛ فقد كانت أخفت على زوجها أنها كانت كلما نظرت إلى طفل لا تلبث أن تسمع نعيه بعد يوم أو يومين ، وأنها كانت تألم لذلك الألم كله وتعجب كيف تنقلب هذه النظرات التى كثيراً ما قيل إنها حلوة جذابة سمًّا زعافا يقتل هؤلاء الأبرياء الصغار . وقالت فى رسالتها : لقد حدث ، ويا لهول ماحدث ، أن جاء أخى يتوسل إلىّ أكثر من مرة أن أزوره لأرى ابنه الصغير ، فكنت ألتمس المعاذير وألفقها لأتقى هذه الزيارة . وأخيراً يئس أخى من ذهابى إليه فحضر ومعه طفله ودفعه إلىّ فمات هذا العزيز بعد أسبوع . . .

« وهكذا ترى أيها الزوج العطوف أننى إنما فررت لينجو ولدنا من هذه النظرات القاتلة . وقد استقر عزمى على أن ألجأ إلى أحد الأديار المسيحية التى يتعبد فيها الناس خفية . وإنى لأقدم هذه التضحية راضية مطمئنة عسى أن يبدلنى الله بهذه النظرات القاتلة نظرات أخرى تحيي القلوب . فهم يقولون إن

هذا الرسول الجديد يشفى المرضى ويحيي الموتى ، فلعله يشفيني مما أنا فيه من تعس وشقاء » .

وانضمت هريانا إلى أحد الأديار التى تعمل فى الخفاء على نشر المسيحية رغم ما تلاقيه من اضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد . وكثيراً ما يداهم عمال قيصر وجندهم هذه الأديار ويدكونها دكا على من فيها من أحياء ، وقد يأخذون من يبقى من ساكنيها حيا ويلقون به فى البحر إلى الأسماك الجائعة .

وحدث أن دهم الجند دير هريانا وأخذوا الراهبات ، وكان فيمن أخذوا هذه الراهبة التى وهبت نفسها بعد زوجها للسيد المسيح ، وصلّت كثيراً وانقطعت للعبادة وضحت بهذا الشباب الغض الذى ذبل بين جدران محرابها الصغير تركع فيه أمام الصليب واصلة ليلها بنهارها حتى اختفى من نظراتها ذلك البريق المخيف الذى يبعث الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء الأبرياء الصغار .

قبض الجند على هؤلاء النسوة الضعيفات وأوثقوهن وأرسلوهن إلى تلك الصخور المتعطشة لدم الضحايا وإلى الأسماك الجائعة لتتغذى وتشبع ويجود لحمها ويطيب ويصلح لموائد القياصرة ويقدم قرباناً على مذابح الآلهة .

وضعت هذه الجثث الحية الموثقة فوق الصخور ومن حولها الجلادون العمالقة ، وقد وقف كبيرهم على رأسهم ملوّحاً بيده فيلقون بإحدى هذه الضحايا التعسة إلى البحر . وما إن سمع « أنطونيو » بكارثة الدير وما انتهت إليه وعلم كذلك مآل زوجه الراهبة ، وكان لا يزال يكن لها الحب كله ، حتى أسرع وحظى بمقابلة قيصر ورجاه وألح فى الرجاء واستعطفه وألحف فى الاستعطاف حتى فاز أخيراً بعفو القيصر عن زلة زوجه على شريطة أن تهجر دينها الجديد وتعود إلى الوثنيــة الحقة دين قيصر ، وسلّم أنطونيو رسالة فيها أمر بالعفو عن الراهبة هريانا .

وامتطى أنطونيو صهوة جواده وأخذ يضرب فى الأرض ويطويها طيًّا وهو يلوح بالرسالة فى يده فرحا بما وصل إليه قلقاً من أن يصل بعد فوات الوقت . .

ومفاجأة توقف صاحبنا البحار عن الحديث وكان قد نكس رأسه ثم رفعه ومضى يهذى بكلام غامض غير مفهوم لكثرة ما شرب ، وساد الهرج والمرج بين الجماعة التى احتدم بينها النقاش ، وقام صاحبنا متثاقلا إلى سريره فى السفينة وطفق يغط فى نوم عميق

ولما أصبح الصبح هرعنا إليه والتففنا حوله ورجوناه أن يتم حديثه ، فنظر إلينا ساخراً وقال «أى حديث يارفاق . . ! دعونى أذهب إلى منزلى لأقابل زوجى وابنتى » . فصاح به أحدنا « أكنت إذاً تكذب على التاريخ » . فأجاب صاحبنا فى برود وسأم وكأنه لا يعرفنا « إن التاريخ يا سادة لزخار بالأكاذيب ، فلم لا نضيف إليه أكذوبة أخرى ! » . وغادر السفينة ونحن نشيعه بنظرات ملؤها الحنق والغضب .

حسين فرج زين العابدين